الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

خلاصة قصة أودسيوس

« لما وضعت حرب طروادة أوزارها أقلع أودسيوس — بطل الأوذيسة — بسفنه قبل أن يقدم القرابين للآلهة فقضت عليه أن يشقى طويلا فى عرض البحر — وقد أغار فى طريقه على مدينة إزماروس ولكن أهلها كروا عليه فأخرجوه ورجاله من مدينتهم — ثم مر بأرض اللوتوفجى وهم قوم يأكلون اللوتس العجيب الذى ينسى آكله كل ماضيه ولا يقبل حين يأكله أن يعود إلى وطنه — وقد أكل بعض رجاله من هذا الثمر ولم يرضوا مغادرة الجزيرة حتى ذهب إليهم وأعادهم إلى سفنه بالقوة — ثم أرسوا على جزيرة السكالبة ، وهم مخلوقات عجيبة ولكل منهم عين واحدة ، وقد حبسهم أحدها فى كهفه وراح يقتاتهم طائفة بعد طائفة حتى دبر أودسيوس حيلة سمل بها عينه وفر ببقية رجاله من وجهه — وأرسوا بعد ذلك بجزيرة عروس البحر سيرس التى سحرت بعض رجاله فأصبحوا خنازير إلا واحداً فر ليخبر أودسيوس الذى لقى هرمز رسول السماء فنصحه وزوده بعشبة لا يسحر حاملها بسحر ساحر . وقد استطاع أودسيوس قهر سيرس فأعادت رجاله إلى صورهم ونزلوا فى ضيافتها جميعاً بعد أن أقسمت أغلظ الأقسام ألا تلحق بهم أذى — وقد نصحت لأودسيوس أن يذهب فى رحلة إلى الدار الآخرة — هيدز — ليعرف له الكاهن الطيبى تيرزياس عن المصاعب التى لابد من تجشمها قبل أن يصل إلى بلاده — وقد عرف له الكاهن ثم لقى أمه وكلمها فأخبرته عما صنع عشاق زوجه بنلوب بقصره وما كان من ولده تلماك — ثم كلم أشباح طائفة كبيرة من عذارى اليونان وأبطال الحرب الطروادية أمثال أخيل وأجاكس وأجاممنون — وعاد أدراجه إلى جزيرة سيرس — وهو هنا يتم قصته »

أودسيوس يتم قصته

١ — السرينات المغنيات

٢ — سكيللا الهولة

« والآن ، وقد احتملنا العباب ذو التثبج وذرعنا اليم المترامي، وعتمنا نضرب فى موج كالجبال ، فقد وصلنا بعد لأى إلى جزيرة إيايا المرجانية حيث ترتع أوروزا ابنة الفجر الوردية وتلعب ، وحيث مطلع الشمس وراء البحر المضطرب . . . وألقينا مراسينا ، وتلبثنا فوق رمال الشاطئ نرقب انبلاج الفجر ، حتى إذا لاحت تباشيره أرسلت طائفة من رجالى إلى قصر سيرس فأحضروا جثمان إلبنور (الذى خر من السطح فدق عنقه) ، ثم إننا بكينا عليه أحر البكاء ، وجمعنا له من الحطب والخشب ما وسعنا ، وطرحناه وسط الكومة التى صنعناها من هذا الوقود ، وطرحنا معه سلاحه ، وأقمنا إلى جانبه مجدافه العظيم ؛ ثم أدينا له الشعائر الجنائزية التى أرويناها بأزكى دموعنا ، وأشعلنا النيران بعد إذ أقمنا له نصباً جليلا ، تحية وذكرى . ولم تعلم بعودتنا سيرس ؛ بيد أنها مع ذلك أقبلت فى ربرب من وصيفاتها الحسان الأتراب يتهادين نحونا ، حاملات دناناً من أكرم الخمر . . . ووقفت بيننا العروس الهيفاء ، ثم قالت : « ويحكم أيها الأشقياء

كيف حلا لكم أن تموتوا مرتين بينا يموت جميع الناس مرة واحدة؟ ولكن تعالوا، هلموا إلى طعامكم، وتحسَّوا من هذه الخمر لتقضوا يومكم فوق رمال هذا الشاطئ في شراب وآكال، فإنكم ضاربون في ظلمات ذاك البحر فَجْر غد. وإني منبئتكم عما يروعكم في طريقكم عسى ألا تضل بكم. ويا ما أكثر ما تتجشمون من أهوال في البر والبحر! ولبينا دعوة الربة المضياف، فأقبلنا على طعام شهي وشراب رَوِي طيلة يومنا، حتى إذا توارت ذُكاء بالحجاب، وشملنا ظلام الليل، تطرح رجالي فوق الرمال الناعمة، ثم انتحيت أنا وسيرس ناحية، وجلست قبالتها، وراحت هي تحدثني وتقول: «أما وقد أوشكت متاعبك أن تنتهي، فاصغ إلي؛ إفقه ما أقوله لك وتدبره، فهو وحي يوحى إليك من السماء ينفعك إذا جد بك الجد، وأزفت حولك الآزفة... ستصل أول ما تصل في رحلتك عَبْرَ هذا البحر إلى جزيرة السيرينات الشاديات اللاتي يسحرن بغنائهن القلوب، ويخلبن بجرسهن الألباب، ويطَّبين[1] كل من أوصله سوء حظه إلى جزيرتهن بحلو تطريبهن وجميل شدوهن حتى ليلصق بأرضهن وينسى آله وأوطانه، ولا يخطر في باله أن يعود إلى بلاده ليهنأ بلقاء زوجه الحبيبة وأولاده الأعزاء، بل يجمد مكانه من الشاطئ حيث يكون يسمع من السيرينات وتكون عن يمينه وشماله رفات الضحايا الكثيرين الذين عرجوا من قبل ليشنفوا آذانهم بغناء أولئك العذارى فجمدوا مثله، وذهلوا عن أنفسهم حتى ذووا، وذبلوا وضووا، وحاق بهم الفناء بينا يخطر السيرينات بين شجر البرواق متهاديات فوق السندس الحلو الجميل... فأوصيك أن تفرغ في آذان رجالك من سائل الشمع قبيل أن تبلغ أرضهن، فإنهم بذلك لا يسمعون شدوهن ولا يسحرون بغنائهن. أما أنت، فلك أن تنصت إلى ذاك الغناء إن شئت؛ بيد أنه ينبغي أن يشد رجالك وثاقك في قلع سفينتك شداً قوياً محكماً، فيربطون ذراعيك وساقيك بأمراس وأحبال، حتى لا يسبيك ما يُشنف أذنيك من غناء وشدو فلا ترضى إلا أن تثوى بأرض السيرينات؛ فإذا اشتد بك الوجد من سحر ما تسمع وطلبت إلى رجالك أن يخلوا عنك لزم أن يزيدوا في رباطك ويحكموا وثاقك أضعاف ما فعلوا بك من قبل... فإذا جُزْتم تلك الجزيرة وغابت مناظرها عن أبصاركم، فلرجالك أن يطلقوا سراحك... على أنني لا أدري أي السبل ينبغي أن تسلكوا بعد هذا، فهنالك طريقان أحلاهما مر، وأيسرهما عناء وضر، وإني واصفة لك كليهما، وأدع لذكائك أن يختار لك... إنكم بالغون في سبيلكم إلى صخور هائلة ناتئة في البحر، تتكسر فوقها أواذيه، وترتطم بجلاميدها أمواجه، وتدافعه على أحيادها أمفتريت (زوجة نبتيون) الجبار. وقد أطلق الآلهة على هذه الصخور اسم (إراتيات) وهي قلال موحشة لا يستطيع مخلوق أن يقترب منها، ولا يجسر الطير أن يهبط فيها؛ بل طير أبينا جوف نفسه الذي يحمل إليه غذاءه الإلهيّ المقدس، لم يجازف مرة فحط فيها يستجم من سفر، لما يعلم من أنها مهلكة زَلِقَة. ولم ترسُ عندها سفينة قط إلا ارتطمت فوق نتوئها وهوت إلى القاع بمن حملت، أو ابتلعتها العواصف

(١) إطبي القوم فلانا مالوه وقتلوه

الموج فغابت حيث لايدرى أحد . ولا يعرف أحد سفينة جازت مهالك هـذه الصخور إلا السفينة (آرجو) التى حاطتها جونو [١] برعايتها رحمة بجاسون وحناناً من لدن سيدة الأولب ، حين أقلعت من جزيرة إيايا ؛ وقوام تلك الصخور هضْبتان شامختان شاهقتان ، تمثل إحداهما صنما هولةً ضخما يضرب فى السماء بِرَوْقيه وتتراكم فوقه منذ الأزل ثقال السحاب التى لايذيبها خريف ولا صيف ، لأن الشمس لم تنشر عليها أشعتها قط .. ولو أن أحداً من العالمين له عشرون يداً وعشرون رجلا ما استطاع أن يرقى عليها أبداً ، لأنها ملساء ناعمة كأنما صقلتها يدا مثال صَناع . . . وإن فى سَنَدِه الغربى لكهفاً سحيقاً نَقِر ثمة باسم إربوس [٢] ، وإني لأحذرك أن تقترب منه حين تجوز به يا أودسيوس ، بل كن بنجوةٍ منه ، بعيداً بقدر ما تستطيع ، أو على الأقل على مرمي سهم مراش من سفينتك إلى وصيده ؛ ذلك لأنه مأوى سكيللا المخيفة التى تدوّى بصوتها وعوائها ، ويفرق الناس والآلهة من وجهها المكالح القبيح ؛ وحسبك أن تعلم أن لها اثنتي عشرة قدماً كلها أمامية ، وأن لها ستة أعناق طوال ينتهي كل منها برأس كبير فظيع ، سلح بثلاثة صفوف من أنياب حِداد أصلها ثابت ، وحشوها سم زعاف . وهى تربض فى غور كهفها السحيق ، بينما أرؤسها بارزة من فوهة الكهف تبحث فى الماء عن الدلافن وكلاب البحر ودواب الماء وجميع حيوان مملكة امفتريت . . . وليس يجسر بحار أن يفخر بأنه نجا مرة من شرها فهى تنقض كالصاعقة على السفينة العابرة ، وتلتقم بأفواهها الستة الجائعة ستة من بحارتها مرة واحدة تقضمهم قضما . . . وتلقاء هـذه الهضبة ، هضبة أخرى على مرمي سهم يا أودسيوس ، وقد نمت فوقها تينة برية كبيرة ذات أفنان وعساليج حانيات فوق الماء ، وتحتها عين خارْبديس الحمئة التي يغيض فيها ماء البحر كله ثم تعود فتمجه ثلاث مرات فى اليوم . ويْلك أودسيوس : خذوا حذركم ! فوالله إنكم إن دنوتم منها فإنها تبتلعكم ، ولا يستطيع نبتيون نفسه بعد ذلك أن ينجيكم . وإنى أرى أن تدنوا من الصخرة الأولى فتلتقم سكيللا ستة منكم ، فهو خير لكم من أن تغرقوا جميعاً » وسكتت سيرس ، وقلت أسائلها : « بحق الآلهة عليك يا ربة أن تخبّرى : أما أستطيع أن أنقذ رجالى المساكين من سكيللا إذا نجونا من خاربديس ؟ » فقالت تجيبنى : « أيها التعس ، أما تفتأ تحن إلى مجازفات الحروب وخوض غمار الوغى ؟ إنه لا سلطان للآلهة نفسها على سكيللا ، وهى ليست مخلوقاً مما يجوز عليه الفناء ، بل هى غول سرمدى شديد المراس ، شكس شديد الشراسة ، لايغالب أحداً إلا غلبه ؛ فأطلق سفينتك للريح ، ولذ منها بالفرار . وإياك أن تفكر فى التسلح لها ، فهى لابد ملتقمة ستة من رجالكم إذا حاولت مدافعتها فإنك منهم ! ! فإذا بعدت فاضرع إلى كراتيس ، أم هذه الهولة التى هى إلى الأبد طاعون للبشر ، أن ترد كيد ابنتها عنكم فلا تتبعكم فى سبيلكم ولا تلتقم منكم أكثر مما فعلت . . . وإنكم بالغون (تريناشيا) بعد هذا حيث ترعى الربتان الحسناوان : لمبّيا وفيتوزا ابنتا هبريون من عروس الماء نيرا ،

(١) هى حيرا زوج زيوس كبير الآلهة .
(٢) إله الظلام الذى تزوج من أمه (نيلة)

قطعان أيهما السبعة التى يشمل كل منها خمسين شاة ذوات صوف ناصع كالثلج . . . وكل هذه الشاء يرعى ثمة باسم رب الشمس العظيم . فإذا كنتم حقا تتشوقون لبلادكم ، وتتحرقون شوقاً إليها ، فاحذروا أن تصيبوا تلك القطعان بسوء ، فإنكم إن فعلتم غرقت بكم سفينتكم وذهب رجالك أبابيد . أما أنت ، فتنجو بعد لأى وبعد نضال وأهوال ، فتصل إلى بلادك ملوماً محسوراً : »

وتنفس الصبح الندى الرخى فذهبت تتبختر وتجر أذيالها إلى قصرها المنيف ، وذهبت أنا إلى الشاطىء فأيقظت رجالى وأمرتهم فجروا السفينة حتى استوت في الماء ، ورفعت مراسيها ، ثم جلس كل إلى مقعده ، وأعملوا أيديهم فى مجاذيفهم فتدافعت الفلك فى البحر ، وما هي إلا لحظة حتى أرسلت سيرس ، الربة المقدسة ، نسيما رخاء كان خير رفيق لنا ، إذ كفانا عناء التجديف ، فتطرجنا فى المركب ، واشتدت الريح فى غير عصف فأسرعت بنا دراكا . . . ثم كلمت رجالى وفي قلبي وجيب فقلت : « أيها الأصدقاء تعالوا أحدثكم عما تنبأت به سيرس لنا فى رحلتنا هذه ، فانه سيان إن أفلتنا من العذاب أو تردّينا فيه ؛ بل أردت أن أطلعكم على ما خبأته المقادير لنا لتأخذوا حذركم ، وتبرموا أمركم ، ويكون كل على نفسه وكيلا . لقد حذرتنى أن يستمع أحدكم إلى غناء السيرينات الشاديات وحلو تطريبهن ، وأجازت لى وحدى أن أصغى إليهن ؛ بيد أنها أوصتنى أن أخبركم أن تشدوا وثاق بأمتن الأمراس فى سارية السفينة فلا تطلقوا سراحى حتى نبعد عن جزيرتهن . وكلما رجوتكم أن تخلوا عنى شددتم وثاق أكثر فأكثر (هذا إن أردتم أن تكون بنجوة من الهلك في تلك الأرض الملعونة) » . وهكذا نبهت غافلهم بتحذيرى . ثم إننا انطلقنا فى اليم . وأخذنا نقترب من جزيرة السيرينات . وعرفت ذلك لما هدأت الريح فجأة ، ونام الموج . وخفتت أنفاس الطبيعة ، وشمل الركود كل شيء حولنا . كأنما مسحت يد مقدسة علوية كل هذا الوجود الرحب . ونشط الملاحون إلى مجاذيفهم فالتمع تحتها بساط الماء ، ثم نشطت أنا إلى قدر من الشمع فعالجته بسكين ، ثم قوّمته براحتي وتركته كى يلين قليلا فى أشعة الشمس ، ثم جعلت منه فى آذان رجالى واحداً فواحداً . . . واستسلمت لهم بعد هذا فشدوا وثاقى فى شراع السفينة شداً محكما ، وجلس كل إلى مجدافه . وانسربت الفلك فى الماء تشقه وتجرجر فيه . . . وصرنا على مدى ما يبلغ الصوت من الجزيرة إلى آذاننا فأصغيت وأصغيت ، وإذا السيرينات الشاديات يتغنين هكذا :

« أودسيوس أيها الزعيم ! يا من لمع بذكره كل لسان »

« ألق فى جزيرتنا مراسيك يا فخر اليونان »

« تلبّثْ عندنا أيها العزيز وشنف أذنيك بأغانينا »

« ما من أحد جاز بجزيرتنا حتى عرج يتزود من هذا الغناء »

« ثم يقلع أسعد ما يكون ، وأفطن ما يكون »

« ذلك ونحن نعلم من أنباء ما أصابك كل شيء »

« ما خضت من معمعان طروادة ، وما أصابتك الآلهة من مصيبة ، وما لقى قومك فى كل مكان »

« تعال تعال . . . هلم نحدثك فعندنا علم كل شيء » .

وهكذا شرع العذاري يسكبن إرنانهن الجميل في قلبي ، وكأنما كن ينفثن فيه السحر فيصفى ويصفى وتلح عليه الرغبة في الإصغاء ، ورحت أنا أضرع إلى قومي أن يفكوا قيودي ويطلقوا سراحي ويخلوا بيني وبين أولئك السيرينات المطربات ، فلم يسمعوا لإشاراتي ولم يستجيبوا لتوسلاتي ، بل هب يوريلوخوس وپرميديس فضاعفوا أغلالي وشدوا على حبالي . . . ثم بعدنا . . . وظللنا نبعد ونبعد ، حتى إذا كنا حيث لا يصل إلينا من شدو السيرينات شيء ، نهض رجالي فأزالوا ما كنت قد جعلته في آذانهم من الشمع ، ثم عمدوا إلي فأطلقوا سراحي . . . وما كادوا يفعلون حتى أبصرت في ظلام البعد موجاً كالجبال كأنه ظلمات بعضها فوق بعض ، ودخاناً كثيفاً ينعقد في الجو ، ثم إذا بي أسمع رعداً قاصفاً يصم الآذان ! وقد ذهل رجالي عن أنفسهم ، وطارت المجاديف من أيديهم فلم تعد تجدهم نفعا ، ووقفت السفينة كأنها الأرجوحة على أرؤس الموج ؛ وذهبت أنا أشجعهم رجلاً فرجلا : « أيها الرفاق : ها نحن نلقى أولى عقباتنا ، وهى ليست على كل حال أشد هولا من مصيبتنا يوم حبسنا السيكلوب في كهفه السحيق ، وكيف احتلت لفرارنا من وجهه ؛ وسيأتي يوم نذكر تلك الشدة المفاجئة بمثل الغبطة التي نذكر بها الشدائد السوالف . . . هلموا إذن ، اثبتوا في أماكنكم ، واصمدوا لهذا اللج المصطخب ، واضربوا فيه في جلد وصبر ، عسى أن يكلأكم جوف ربكم فينجيكم منه . وأنت أيها الربان أصغ إلى ، إنك تقبض على ناصية الحال ، فتحاش أن تقترب من هذا الدخان وتلك الأمواج الثائرة . . . إبتعد ما استطعت عنها ، وخذ سبيل هذه الصخرة ، ذلك أدنى ألا تقذف بنا في حمأة الخطر . . . » وظللت أنفخ فيهم روح الصبر حتى فاءوا إلى أمرهم فاستقتلوا في مجاهدة الأمواج استقتالا . . . وتسلحت أنا بكل ما استطعت من عدة ، وجعلت في يدي رمحين طويلين ، ووقفت أرقب سكيللا الهولة من بعد ، ولم أجسر أن أذكر كلمة عنها لرفاقي حتى لا تفرغ أفئدتهم فرقاً فيهربوا من عملهم ويكتظوا في بطن السفينة مخافة أن يمسهم منها أذى . . . وشرعنا نعبر البوغاز ، . . . ولشد ما أفزعني أن أرى سكيللا ترمقنا وتتلمظ ، وقد انتصبت كالموت على الشاطىء القريب ، ثم أرى في الوقت نفسه خاربديس على الشاطىء الآخر تحشرج في حلقها الرحب الفظيع عباب الماء ثم تمجه ، فكأنما تقذف من جوفها ماء فائراً يعلو في الجو كالحميم ، ثم ينهمر وبله في كل فج ، وتعود فيغيض البحر في بلعومها ، ثم تقذفه ، وهكذا دواليك . . . بالمروع ، وياللفزع الأكبر ! تالله لقد كنا ننظر ما تبدي خاربديس وما تعيد في جزع وفي هلع ، بينما كانت سكيللا تتوثب وتتوثب ، ثم ترسل أرؤسها الستة فتلتقم ستة من رجالنا كانوا وا أسفاه أشجعهم جميعاً ، وكان قلبي يتمزق حين راحوا يهتفون بي ، وينادونني باسمي وأنا كالذي أسقط في يديه ، ما استطيع شيئا فأصنعه ، بل أنظر إلى أذرعهم وأرجلهم تتقلب في الهواء وهم يصيحون ويعولون ، وأنا ساكن ذاهل أقلب كفي ولا أفعل شيئاً آخر ! واحزناه ! ! ما كان أشبه سكيللا المتوحشة بصائد السمك الذي أطعم سناره وأرسلها من فوق صخرة تداعب السمكة المسكينة ،

حتى إذا حان الحين جذبها إلى عل تترنح هنا وهناك . هكذا كانت هـذه اللعينة التي جذبت إلى كهفها أشجع رجالنا وراحت تقتات بهم بين الصراخ والبكاء ، وبين التوجع والأنين ، وكلهم يمد إلى ذراعيه مستنجداً مستغيثاً في قنوط ويأس ! ! أبداً ماوقعت عيناي في مشارق البحار ومغاربها ، بل في جميع مخاطراتي ، على منظر أبعث للأسى ، وأمض للنفس ، وأجرح للفؤاد ، من ذلك المنظر الرهيب !

وما كدنا نفلت من سكيللا وخاريديس بعد تلك الفاجعـة حتى اقتربنا من أرض الشمس ، حيث ترعى قطعان هيبريون[1] الجميلة الكثيرة ذات الفراء الناصعة ... ولقد كنت أسمع ثغاءها ورغاءها إذ أنا على ظهر سفينتي في عرض البحر . وسرعان ما ذكرت ما قاله لي الكاهن الطيبي الأعمى ، تيرذياس في هيدز ، عن هذه القطعان ، ثم ما أنذرتني به سيرس سيدة إيايا من وجوب الابتعاد عن هذه الجزيرة التي كانت منذ الأبد غواية للبشر ، حتى قمت في رجالي جعلت أحذرهم وأقول : « أيها الرفاق اسمعوا ! هذه هي جزيرة الشمس الهائلة التي حذرنا تيرذياس الكاهن الطيبي من الرسو بها أو الاقتراب منهـا . وكذلك حذرتني منها سيرس ربة إيايا ، فإن كل ما لقينا من أهوال ليس شيئاً إلى الهول الذي يحيق بنا إذا حللنا بها . فاسمعوا نصحي وسيروا بنا نذرع هذا البحر نسلم من شر مستطير ، وبلاء لا يجيرنا منه مجير » وكانوا يصغون إلي في حيرة وذهول ، وما كدت

أفرغ حتى انتصب يوريلوخوس يرد علي في جفوة وضيق : « أوديسيوس ، أيها القاسي الطاغيـة ، أما أوهنت كل تلك الشـدائد جلدك ؟ أمخلوق أنت من حـديد فما ترق وما تلين ؟ أتأبى على رجالك الموهونين المكدودين أن يرسوا بهذه الجزيرة الفيحاء المعشبة ليريغوا مما بهـا من آلاء ، وليطعموا من خيرها الكثير ؟ أتصرفنا عنها بنزقك وقلة بصرك لنخبط طول الليـل في هذا البحر الأجاج خبط عشواء مع ما تكون الريح عليه حينئذ من شدة وعنف ؟ خبرنا أيها الأحمق ما ذا نصنع إذا عصفت بنا نكباء من الجنوب تحطم فلكنا ولا ينجينا من بطشهـا حتى الآلهة ؟ أليس الأفضل لنا أن نرسو في هـذه الجزيرة فنقضي بها ليلنا ، حتى إذا انفلق الإصباح أقلعنا منها على هدى ؟! »

وحبذ الملاحون ماقال ، فدار في خلدي أن لا بد مما ليس منه بد ، وأن لا بد من وقوع القارعة الكبرى بنا ، فقلت في كلمات يائسات : « لا ضير يا يوريلوخوس ! وليس بي من بأس أن أخضع لما ترى الجماعة ؛ ولكن تعالوا جميعاً فأعطوني موثقكم ألا تذبحوا شاة ولا تجزروا نعمة مما هنا من هذه القطعان ، مهما ألح عليكم السَّغَبُ ، وأضواكم الجوع ... بل يكون حسبكم ما حملتم من آكال من عند سيرس »

وأقسموا أغلظ الأقسام أن يفعلوا ، ثم يمموا بالفلك في جون هادئ ترتفع في وسـطه نافورة رائعة ؛ فأرسوا ثمـة ، وتدفقوا إلى الشاطئ ، وراحوا يعدون وجبـة المساء ؛ بيد أنهم سرعان

(١) في بعض المصادر أن الشمس غير هيبريون ، وفي بعضها أنها هو ، وفي بعضها أنه أحد سواس عربتها

مانسوا مسغبتهم حين تذكروا إخوانهم الذين غالتهم سكيللا ، وراحت تغتذى بهم أمام كهفها السحيق فأخذوا يبكونهم ويذرفون عليهم دموعهم حتى غلبهم النعاس ، فناموا ... وفى الهزيع الثالث من الليل ، حين عبرت النجوم فكانت فى كبد السماء ، ساق جوف رب السحاب الثقال ريحا جابت البر والبحر ، وغمرتهما بماء منهمر ، ثم عقد فى الكون ظلمات فوق ظلمات يتدجى بعضها فى بعض ... ثم أشرقت أورورا الوردية ، فنهضنا من مراقدنا ، وسحبنا الفلك إلى غار كان لبعض عرائس البحر يرقصن به أو يستروحن فيه ؛ وما كاد شملنا يجتمع ثمة حتى نهضت فى رجالى أقول : « أيها الرفاق إننا ما ينقصنا غذاء ، وما بنا من حاجة إلى أكل ، فمعنا من ذلك الشىء الكثير ، فإياكم وأن تمسوا هذه القطعان بأذى ؛ وحسبكم أن تعلموا أنها ملك خالص لربة الشمس التى ترآكم أينما كنتم » وهكذا أيقظت فى نفوسهم النخوة . ثم إنا لبثنا فى تلك الجزيرة شهرا ما نريم عنها وما كان لنا إلى غيرها متحول ؛ ذلك لأن الدبور [1] ظلت تهب من الجنوب فى صرامة وشدة ، فإذا هدأت ، لم تهدأ إلا لتهب ريح شرقية أشد منها عنفا . لم يمسوا قطعان الجزيرة السائمة بأذى مادام لم ينفد ما كان معهم من طعام . فلما تناقصت ميرتهم راحوا يتلمسون صيد البر والبحر ، أما أنا فكنت أجوس خلال الجزيرة عسى أن ألقى إلهها أضرع اليه فيجعل لنا من أمرنا مخرجا ... وبينا أجوب الجزيرة إذا بى أبعد كثيرا عن رفاقى ، فبدا لى أن أسكن إلى منعطف دافىء هادىء على سيف البحر ، فأغسل [1] يدى مما علق بهما من قذر ، ثم جلست أصلى للآلهة ، وأدعوها واحداً بعد واحد أن تهيىء لنا من شدتنا مرفقاً ، ولكنها جميعاً — وا أسفاه — أصمت آذانها عن دعائى ، ثم أرسلت علىّ طائفاً من الكرى . . . فنمت نوماً عميقاً . . . بينما كان يوريلوخوس التعس يوسوس إلى رفاقه فيقول : « أيها الأصدقاء : أنا أخوكم فى البلاء ، فاسمعوا وعوا . ليس أشنع من الموت إلى النفس ، ولكن الموت جوعاً هو أشنع ألوان المنايا التى يرتجف منها الانسان . . . هلموا . . . لنذبح من هذه الشاء والنعم ، ولنضح للآلهة أضخم ثيران الشمس ، ولنتذر أن نبنى للرب المبارك هيريون هيكلا عظيما حالما نصل سالمين إلى إيثاكا ، ولنتذر أيضاً أن نجعل فى الهيكل من الطرف والتحف ما يرضى الآله ويكفر عن سيئتنا . أما إذا آثر أن يغرق فلكنا وتضافرت معه جميع الآلهة على ذلك ، لأننا ألحقنا أذى بعدد من قطعانه ، فانى أول من يجاهر بقبول الموت مرة واحدة فى أعماق هذا اليم ، على أن أموت هذا الموت البطىء جوعاً ! » وزين لهم ما قال ، فاستاقوا أسمن ما فى القطعان التى كانت ترعى العشب قريباً منهم ، ثم أطعموها أنضر أوراق الشجيرات الباسقة إذ فرغ كل ما لديهم من الشعير ، ثم

(١) ريح الجنوب ضد الصبا

(١) كان غسل اليدين كالوضوء عندنا شرطا لا تصح الصلاة اليونانية بدونه

صلوا للآلهـة ، وجزروا الحيوانات البائسة ثم سلخوها ، وفصلوا الأفخاذ والشحم ، وقذفوا بها إلى النار تقدمة للآلهة وقرباناً . . . ولم يكن معهم خمر ليتموا بها الشعائر القدسية ، فقذفوا فى النار بدلا منها ماء قراحاً . . . وجلسوا بعد هذا يعدون شواءهم من الحوايا [١] والكبد وما إلى ذلك مما فى جوف البهيم : حتى إذا نعموا ملء بطونهم انطرحوا فى مراقدهم بينما استيقظت فجأة من سباتي ونهضت لأنطلق فى طريقى صوبهم . وما كدت أشرف عليهم حتى ملأ خياشيمى قتار [٢] ما فعلوا ، فوجمت وجوماً شديداً ، ثم أجهشت ، ثم استخرطت فى بكاء طويل وضرعت إلى الآلهة وظللت أقول : « أهكذا يا أرباب السماء تلقون علىّ ذلك الطائف من الكرى فيفعل أصحابي ما فعلوا إذ أنا أغط فى نوم عميق ؟ » . . وطارت لمبتيا بالخبر المشئوم إلى إله الشمس فثار ثائره وطفق يصخب ويهتف بالآلهة ويقول : « يا جوف العلى ، وأنت يا آلهـة السموات : إثأرى لنا فعل السفهاء من رجال أودسيوس . لقد اجترأو فجزروا من نعمي وشائى التى هى بهجتى وأنسى والتى أرمقها أبداً من علياء السماء ؛ فإن لم تنتقمى لى فوعزتى لأهبطن بشمسى إلى هيدز فأنير آفاقها ، وأضفى أضوائى على الأشباح ثمة (وأدع هذا العالم المشرق الجميل يضرب فى دياجير ما مثلها دياجير . » وأجابه رب السحاب الثقال فقال : « يا إله الشمس

(١) الأمعاء .

(٢) ريح الشواء .

على هينتك ؛ بل ظل مشرقا على بنى الموتى الدائبين فى تلك الأرض ، وإنى مسخر صواعقى على سفينتهم فى عرض البحر فى مثل لمح البصر فتذهب بها وبهم أباديد » . . . أما من أخبرنى هذا فقد نبأتنى به كليبسو ، فقد حدثها به هرمز رسول الآلهة ... ثم وقفت فيهم أنتهرهم وأنحي عليهم . ولكن ... واأسفاه : أى انتهار وأي نحي وقد سبق السيف العذل ؟! ثم حدثت المعجزة !! وبدأت السماء تشهد آياتها فقد تحركت الجلود الملقاة على الأرض وزحفت نحونا ثم سمعنا مضغ اللحم الغريض سواء منها ما ظل دون أن يمس وما علق منها بالسفافيد ، وقد أرسل ثغاء وخواراً كأنها ما تزال على قيد الحياة ! ... وهكذا ظل رفاق يجزرون كل ثور حنيذ من ماشية إله الشمس ويغتذون بحواياها طوال ستة أيام، حتى إذا كان السابع أمر جوف العاصفة فهدأت ، والبحر فتطامن ، فأهرعنا إلى الفلك فأنزلناه فى اليم ، ونشرنا الشراع ، وأقلعنا حيث لا ندرى ماذا يراد بنا ! ! ثم غابت الأرض عن الأنظار ، ولم يكن إلا البحر من ورائنا وأمامنا وعن شمائلنا وأيماننا . . . ثم السماء من فوقنا . . . ثم شرع زفيروس [١] يهب ويهب ، ويقلب اللج من حولنا ، ثم اشتد واشتد ، وصار ريحاً عاصفاً هوجاء ، كسرت قلاعنا وحطمت سكاننا ، وذهبت بقلب الربان المسكين فلم يعد له صبر ولا جلد ... ثم سلط علينا جوف صواعقه فقصمنا ، وحطم سفينتنا فترنحت أول الأمر ، ثم غاصت إلى الأعماق ،

(١) إله الصبا .

وطفونا على سطح البحر الغاضب بلا أدنى أمل فى أى شىء بله العودة إلى بلادنا . . . ولقد كنت أرقب حطام الفلك يطفو معنا وينوص ، حتى عن لى أن أعلق بالهراب القريب منى ، فطويت عليه قطعة من الشراع الممزق وجعلته لي ثماماً لصقت به ، بينا نامت الشمال لسوء حظى ، وأخذت الجنوب تهب فى عنفوان وبأس ، وتدفعنى بقسوة وقوة حتى خيل لى أنها ستنتهى بى إلى عين خاربديس الحمئة ... يالهول ! لقد مضى على ليل أيما ليل ... حتى إذا أشرفت ذكاء ، رأيتني ويالالأسف عند صخرة سكيللا ، وعلى مسافة من عين خاربديس . ولحسن حظى كانت اللعينة قد ابتلعت كل مياه الشاطئ ... ثم دفعتنى موجة من الأعماق فاستطعت أن أعلق بأحد أغصان التينة الهائلة النامية فوق صخرتها ، فبقيت لاصقاً به كالخفاش لا يمكننى أن أهبط أو أن أتسلق لعظم ما كانت الأغصان تبتعد من الأرض وتمتد من حولى ، ولأنها كانت تعرش من فوق خاربديس ، حتى كنت أرتعد من فزع وهلع عند ما كنت أبصر تحتى فأرى العين الحمئة اللعونة تبتلع الموجة إثر الموجة ؛ ثم رأيت الهراب وقطعة الشراع التى كنت عالقاً بهما ينقذفان نحوها ويكونان تحتى فطربت ولو أن هذا جاء متأخراً حتى ريع قلبي ووهنت قواي ؛ وغمرنى شعور الذى انفرجت أزمته ، وكشفت عنه غمته ، فهويت إلى الماء ، وتعلقت بهما بقبضتين مستميتتين ... ويلاه علىّ ! ! أواه ! لو لحتنى سكيللا الهائلة طافياً هنالك ! إذن ما استطاع إنقاذي رب الأرباب نفسه من مخالبها وأنيابها ! ! ثم بقيت هكذا تسعة أيام بلياليها . . . يصرعنى البحر وأصرعه ، ويناضلنى الموج وأناضله ، حتى رثت الآلهة لحالي فساقتنى فى العاشر إلى أوجيجيا ، جزيرة عروس الماء كليپسو ، فرسوت ثمة فى ليلة ليلاء ، مظلمة طخياء . . . وقد نالنى من كرم العروس وجميل معروفها ما رد إلى قواي ، وأثابني عما لقيت من شقوة وأرزاء ...

ولكن لم هذا ؟ لقد سئمتم قصتى مع كليپسو من قبل ، إذ رويتها للملك ولزوجه أمس ، وإنى لأكره الحديث المعاد »

(تمت قصة أوديسيوس)

(يتبع) دريني خشبة

تصحيح

نأسف ونعتذر لأن أربعة أسطر فى صفحة ٩٠٢ من العدد الماضى وهي التي فى أول العمود الأيمن وضعت مكان أربعة الأسطر التى فى آخره فاختل السياق وضاع المعنى . وتصحيحها بالطبع أن تنقل الأسطر الأربعة التى فى آخر العمود إلى أوله ، وتنقل الأربعة التى أوله إلى آخره ، فيتصل الكلام

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧ ﴾